Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما يرى أن الكتاب لا يكون بليغاً إلا إذا كان هناك « ارتباط الجمل بالقطعة ، والقطعة بالمقالة أو الفصل ، والفصول بأبحاث الكتاب على الجملة »[١٥] . وهكذا يعود ضومط ليؤكد على المبدأ الذي انطلق منه وهو أن لكل عصر بلاغته الخاصة به ؛ ولذا فلا يجدر بالكتّاب المعاصرين أن ينهجوا على خطوات عصر سبقهم : لا بد لهم من اعتماد بلاغة عصرهم الذي فيه يحيون وفيه يمارسون الكتابة[١٦] .

يبدو أن رغبة التأكيد على هذا المبدأ العام في فهم البلاغة الأدبية كان دافعاً قوياً لجبر ضومط كي يؤلف كتاباً خاصاً حول هذا الموضوع : إنه كتابه « فلسفة البلاغة » الذي أصدره في لبنان سنة ١٨٩٨ . وغاية هذا الكتاب ، كما يوضحها ضومط ، هي أن يقدم للقارىء قاعدتين أساسيتين تمكناه من توصيل أفكاره أو المعاني التي يريدها للآخرين بأيسر وأقصر طريق ؛ أي بأكثر الأساليب بلاغة وفصاحة . وفي محاولة منه لتأسيس هاتين القاعدتين يعمل ضومط ، أولاً ، على أن يلتقط « بقعة ضوء » من التراث الفكري العربي . إنه يستعرض التعريفات التي قدمها دارسون للبلاغة العربية مثل عبد الحميد بن يحيى ، وابن المعتز ، وجعفر بن خالد ؛ كما أنه يستعرض ما قدمه الجاحظ من مفاهيم اليونان والفرس للبلاغة . وهو يصل إلى فكرة مؤداها أن البلاغة تتحقق في العمل الأدبي عندما يتم نقل الفكرة أو المعنى من خلال الضروري فقط من البنى الأدبية . وهذا يعني ، عند ضومط ، المبدأ الأول في الفعل البلاغي وهو ما يُعبِّر عنه « بالاقتصاد على انتباه السامع »[١٧] . وعلى هذا الأساس نراه يُفَصِّلُ الفكرة بقوله :

« لا يخفى أنه ليس للقارىء أو السامع في كل هنيهة معينة إلا مقدار معين من قوة الانتباه . وهذا المقدار لا بد من صرف جزء منه في سمع الكلمات وإحضار صور المعاني الموضوعة بإزائها ؛ ولا بد أيضاً من صرف جزء آخر منه في ترتيب تلك الصور بحسب ما لها من العلاقات بعضها ببعض . وما بقي من تلك القوة فَيُنْفَقُ في تحقيق الفكر المودع في الجملة وتثبيته في الذهن . وعليه ، فبقدر ما يزيد هذا الباقي الأخير تزيد صورة الفكر وضوحاً ورسوخاً في